الحياة الديمقراطية
فى الإسلام

للدكتور محمد توفيق صدقى

قرر الإسلام أول ما قرر ، أن افراد البشر جميعاً عند الله سواء ، وأنه سبحانه لا ينظر إلى صورهم وأزيائهم ، بل ينظر إلى قلوبهم واعمالهم .

وأن رحمته تعالى لمن أطاعه ولو كان عبداً حبشياً ، وعذابه لمن عصاه ولو كان شريفا قرشيا .

فلا فرق بين الغنى والفقير والصعلوك والأمير والحر والعبد إلا بالتقوى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فرفع بذلك كل امتياز موهوم بين الأفراد ولم يجعل لأحد على الآخر سلطانا إلا ما اقتضته حدود الشريعة لدفع الأذى ، وحفظ الأمن ، وفيما عدا ذلك لا مسيطر على الإنسان إلا الله وحده ، وليس بيننا وبينه تعالى حجاب أو واسطة « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » فلا كاهن ولا رئيس فى الدين ليقرب الناس من رب العالمين .

زال بذلك كل ما كان وضعه رؤساء الأديان الأخرى من الحجر على العقول ، وعلى ما منحه الله لنا من الحرية ، كدعوى التوسط بين الله والناس فى غفران الذنوب وإباحة ارتكاب بعض المحرمات فى مقابلة دريهمات يأخذونها ، ومنع الناس قراءة كتبهم الدينية إلى غير ذلك من المفاسد التى وقعت فيها الأمم الأخرى ، بسبب عبارات وردت فى كتبهم فهموها بهذا المعنى بحق أو بغير حق ، واستمرار على العمل بها إلى ما بعد مجيء الإسلام بعدة قرون ثم أخذ بعض الطوائف فى الأصلاح بمثل ما أتى به ديننا القويم من قبل .

أمكن المسلم بسبب ذلك أن يقف بين يدى الله تعالى وحده ويقرأ كتابه

بنفسه ، ويفهم منه ما يشاء أن يفهم ، فلا توسط ولا مراقبة ولا حجر والناس غيره فى عبودية وذل ، وغباوة وجهل .

ذم الإسلام بعد ذلك التقاليد ونهى عن متابعة الأهل فى شىء إلا بدليل « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » .

وأمر المسلم أن ينظر فى القول ليميز صدقه من باطله بدون نظر إلى قائله « فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » وخاطب القرآن العقل فلم يقرر عقيدة ، أو يرد أخرى إلا بالدليل العقلى .

وأى كتاب غيره أقام الدليل على حدوث العالم بحركات الأجرام السماوية ، كما أقام الدليل على البعث بالمقابلة بالخلق « أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العظيم » ولم يكتف بإقامة الحجة على العقائد فقط ، بل لا تجد فى الغالب أمراً أو نهياً إلا أتبعه بالدليل ، ولم يرض بالإسلام والرضوخ بدون معرفة السبب فقال فى الصيام مثلا : « كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون» وقال فى الحدود : «ولكم فى القصاص حياة » وقال فى الأخلاق : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة أدفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » .

فأى دين أتى بهذا كله . ذلك دين القيمة .

الكرامة...

والمعرفة...

- سئل سهل بن عبد الله التسترى عن الكرمات فقال: « وما الآيات ؟ وما الكرمات ؟ شيء ينقضى لوقته ، ولكن أكبر الكرامات أن تبدل خلقاً مذموماً من أخلاق نفسك بخلق محمود » .

- وعن أبي يزيد البسطامى قال : « كان فى بدايتى يربنى الحق الآيات والكرامات فالتفت إليها ، فلما رآنى كذلك، جعل لى إلى المعرفة سبيلا »

- وقيل لأبى يزيد فلان يقال : إنه يمر فى ليلة إلى مكة فقال : الشيطان يمر فى لحظة من المشرق إلى المغرب وهو فى لعنة الله .

- وقال أبو يزيد : لو أن رجلا بسط مصلاة على الماء وتربع فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه فى الأمر والنهى .

- قال أبو القاسم الجنيد : « حجاب قلوب الخاصة يكون برؤية النعم وبالتلذذ بالعطاء ، وبالسكون إلى الكرامات » .

- ويقول أبو نصر السراج : سمعت ابن سالم يقول : سمعت أبى يقول : كان رجل يصحب سهل بن عبد الله ، يقال له عبد الرحمن بن أحمد ، فقال يوماً لسهل : يا أبا محمد ، ربما أتوضأ للصلاة فيسيل الماء من يدى ، فيصير قضبان ذهب وفضة !!؟ فقال له سهل ياحبيبى أما علمت أن الصبيان إذا بكوا يعطون خشخاشة حتى يشتغلوا بها .. دعك من هذا اللغو . انظر ماذا تعمل » .